صورة من الحياة العلمية فى مصر

٢ - تقى الدين السبكى

بقلم محمد طه الحاجرى

وفى أثناء هذه الولاية ولد له تقى الدين ، وفى هذا البيت الكريم الذى ترفرف عليه روح العلم والورع نشأ نشأة مباركة بين ابيه وعمه الشيخ صدر الدين [١] أحد أفاضل العلماء ، يرعيانه ويتوليان أمره . وينشئانه أحسن تنشئة وأكرمها ؛ فقد رأيا فيه من ملامح النجابة والذكاء والاقبال على العلم والجد عليه ، والانصراف عن اللهو ولذائذ الحياة ، ما جعلهما يتنوران من خلاله أنه سيكون إماماً من أئمة العلم ورجلاً من رجال الخلق والفضل . فقد حكى عنه ابنه تاج الدين « أنه كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر ، فيجد أهل البيت قد عملوا له فروجا ، فيأكل ؛ ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب ؛ فيأكل شيئاً حلوا لطيفاً ، ثم يشتغل بالليل ؛ وهكذا لا يعرف غير ذلك . . . . . وكأن الله قد أقام والده ووالدته للقيام بأمره ، فلا يعرف شيئاً من حال نفسه . »

لقد كانت طفولة عجيبة ، تلك الطفولة الجادة العاملة الوقور المنصرفة عن اللهو واللعب ومنازع الصبيان ، ولقد عجب أبوه نفسه مرة من هذه الظاهرة ، ورأى فى انصراف ابنه عن عبث الأطفال ، والنيل من لذائذ الطعام أمرا لا يتفق مع سنه الصغير فأشار على أمه أن تعطيه درهما أو درهمين علّه أن يرى فى السوق شيئا يشتهيه فيشتريه ، فعقدت له أمه منديلا على نصف درهم ، وهو يروح به ويغدو ، إلى أن ضاق بحمله ، فألقاه إلى أمه ، وقال لها ما شأنى بهذا ، وما أصنع به ؟ . . .

وإن هذه الأحاديث التى يرويها تاج الدين عن أبيه جديرة بأن تكون صحيحة ، وهى ترسم لنا صورة لتقى الدين الطفل ، تتسق كل الاتساق مع صورة تقى الدين الرجل الكهل ؛ فكأنما كان نمت روح من عند الله أخذت توجهه منذ مولده إلى غايته المقدورة ، وترسم له السبيل اليها ، وتحوطه أن ينحرف عنها .

(١) تولى فى آخر حياته التدريس بالمدرسة السفية إلى أن مات سنة ٧٢٥

ولسنا نشك فى أنه كان ثمرة كريمة مباركة لكل الظروف التى قدمنا ذكرها

وكان الأب [١] مايفتأ يذهب إلى مصر ليلقى بها قاضى القضاة فكان يستصحب معه ابنه ليزوره معاهد العلم ، ويشهده ربوع الفضل ، فمرة يزور به مدرسة الحديث الكاملية [٢] ويدخل به على شيخ الاسلام تقى الدين ابن دقيق العيد . ومرة يذهب به إلى ابن بنت الأعز ، وأخرى إلى غيره من علماء العصر ، وهو فرح به مستبشر ، والولد يرى هذا السمت وهذه الهيبة وذلك الوقار وتلك المثل العليا لما انطوت عليه نفسه . فيتوثب قلبه ، ويمتلىء صدره بهجة وطموحا

ثم عزم الأب أن يقيمه فى القاهرة بين أولئك الأعلام ، وفى ذلك الجو العلمى ؛ وكان قد تفقه وحفظ كتاب التنبيه ، ولكنه حين عرض الأمر على ابن دقيق العيد عارض فيه وكأنه استصغر سنه ، وأشفق عليه من الغربة . فقال لأبيه : عد به إلى « البر » حتى يصير فاضلاً . فعاد به ، وفاته ما كان يحرص عليه أبوه ، فيما يظهر ، من التتلمذ على شيخ الاسلام والأخذ عنه ، والتشبع بمبادئه ؛ فانه لم يعد إلى القاهرة إلا بعد وفاة ابن دقيق العيد أى نحو سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م)

— ٢ —

جاء تقى الدين إلى القاهرة ولم يكد يبلغ العشرين من عمره ، وهو يتوثب رغبة إلى إرواء غليله العلمى فى هذه البيئة العلمية الخالصة التى تتجاوب فيها أصداء العلم المختلفة ، وتقوم بها المناظرات بين الآراء المتباينة ، وكان بها طائفة من الأئمة الأعلام فى مختلف الفنون :

كان بها ابن الرفعة [٣] شيخ الشافعية ، وإمام الفقهاء ، وبه تفقه السبكى

وكان بها فى الأصول والمعقولات الامام النظار علاء الدين الباجى [٤] ، وكان رجلا واسع الباع فى المناظرة ، مستقل الرأى فى الاستنباط ، « لا يفتى فى مسألة حتى يقوم عنده الدليل عليها

(١) يظهر أن مقر عمله كان مدينة المحلة « وبها مات سنة ٧٣٥ » انظر صبح الأعشى (ج ٣ . ص ٤١٠)

(٢) أنشأها السلطان الملك الكامل الأيوبى بخط « بين القصرين » سنة ٦٢٢ ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية (المقريزى) (٣) توفى سنة ٧١٠

(٤) توفى سنة ٧١٤

قال لم ينهض عنده قال : مذهب الشافعى كذا ، والأصح عند الأصحاب كذا ، ولا يجزم » كما يقول عنه صاحب طبقات الشافعية ؛ وما نشك فى أنه كان قوى الأثر فى تقى الدين ، عظيم اليد على قوته فى الجدل ، مشجعاً له على الاستقلال فى الرأى ، حتى ليعدون له مسائل كثيرة من فروع الفقه انفرد بالرأى فيها دون إمامه الشافعى وأصحابه وخلفائه ؛ وإذا كان مرجع هذا فى أول الأمر إلى فطرته السليمة ، وبصيرته السديدة ، وإدراكه القوى ؛ فإن لمثل ذلك الامام فضل التسديد وتقوية تلك النزعة الفطرية ، وحمايتها من عوامل الضعف

وكان بها فى فن الحديث العلامة الكبير الحافظ شرف الدين الدمياطى إمام أهل الحديث ، وأستاذ الأستاذين فى معرفة الأنساب ، وكان صديقاً لأبى تقى الدين مكبراً له ، فاختص الابن بأكبر الرعاية ، وأقبل تقى الدين على درسه بالمدرسة المنصورية (١) وأكثر من صحبته والملازمة له والأخذ عنه بتلك الحافظة المدهشة التى يقولون عنها : إنه كان ما يكاد يسمع شيئاً حتى يحفظه ، ولا يحفظ شيئاً فينساه وإن طال عليه الأمد وبعد به العهد ، حتى صار آية فى فن الحديث ومعرفة الرجال والجرح والتعديل ، ولكنه لم يدرك شرف الدين إلا وهو شيخ هم كبير فى عشرة التسعين (٢) فكان شديد الحرص على صحبته وملازمته حتى لا يكاد يتركه ، ثم لم يلبث شرف الدين أن مات فجأة عقب مفارقته له فى ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٥ ، ولم يكن قد أشبع رغبته من فن الحديث بعد ، فلازم بعده كبير أهل الفن فى عصره ، الحافظ سعد الدين الحارثى

وكان بها فى علوم العربية أبو حيان الأندلسى (٣) وكان عليه طابع المدرسة الأندلسية من الحفظ والتوسع فى رواية الشعر واللغة والقراءات ، والتبحر فى معرفة قواعد النحو ومذاهبه ، وأثر من المدرسة المصرية من النظر والمقابلة والمراجعة وروح النقد والتحليل ، فتتلمذ تقى الدين له ، وقرأ عليه كثيراً من كتب النحو مثل كتاب سيبويه وكتاب ابن عصفور وغيرهما ، وكان أبو حيان يمرن تلاميذه على صناعة النظم ، فيقترح عليهم عروضاً خاصاً وبحراً معيناً ينظمون عليه ، وأنشأ تقى الدين قصيدة على حرف الزاى جاءت من هذه السبيل ، ولعلها خير ما صنع من الشعر ، فلم يكن له فى هذا الباب سليقة ، وقد غلب عليه المذهب الفكرى النقدى ، فجاء شعره نازلا ركيكا ، وسنعرض شيئاً منه فى هذا البحث متى عرضت المناسبة

ثم لا ننسى من شيوخه الذين تركوا فيه أثرا بليغاً ، وإن لم يكن من الناحية العلمية المحضة ، تاج الدين بن عطاء الله السكندرى ، وكان من حسن حظه أنه ترك الاسكندرية ؛ واستوطن القاهرة ، وبقى بها يعظ الناس ويرشدهم ، ويحدث تلاميذه ويبصرهم الى أن مات سنة ٧٠٩ وكان امام أهل التصوف ، جميل السياق ، صافى الأسلوب ، ساحر العبارة ، فنال فى الناس مكانة عالية ، ومال اليه تقى الدين وصحبه ، وانعقد بينهما حب قوى وعلاقة مؤكدة . وظل أثر الروح الصوفية التى كانت على أخلص ما يكون فى ابن عطاء الله ظاهرا قوياً فى تلميذه تقى الدين فى شتى أدوار حياته ، وكثير من أقواله وتصرفاته

وكان من شيوخه كذلك الشيخ تقى الدين ابن الصائغ فى القراءات ، والشيخ شرف الدين البغدادى فى المنطق والخلاف ، والشيخ علم الدين العراقى فى التفسير ، والشيخ عبد الله الغارى المالكى فى الفرائض

وقد رحل الى الاسكندرية وسمع من رجال الحديث فيها ، وكان بها طائفة منهم يرحل اليهم طلاب الحديث مثل أبى الحسين الصواف

وإلى ذلك الحين كان قد نضج وامتلأ وصلب عوده ، ورأى فيه شيوخه رجلاً يناظرهم كلا فى فنه ، فجعلوا يملأون المجالس بذكره والثناء عليه والاعجاب به ، حتى استطار أمره ، وامتلأت أندية القاهرة بالحديث عنه . ولم يبق الا أن يرحل إلى الشام ليسمع من محدثيها فتتم له الغاية فى فن الحديث

وكذلك رحل إلى الشام رحلتـه الأولى فى سنة ٧٠٦ (١٣٠٦ م) وسمع من رجالها أمثال الذهبى والمزى والبرزالى وابن الموازينى وابن مشرف ، وعقد بها المجالس للمناظرة ، فتجلت هناك عبقريته ، وسمت فى نظر القوم منزلته ، وامتلأ علماؤها إعجاباً به ، ومكث بها عاماً يسمع ويناظر ، حتى أصبح حديث الناس فى الشام كما كان حديثهم فى مصر ؛ وبذلك أشرف على الغاية فى بعد الشهرة وذيوع الصيت

(يتبع)

محمد طه الحاجرى

(١) أنشأها الملك المنصور قلاوون الألفى (٦٧٨ — ٦٨٩) ورتب بها دروساً أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ، ودرساً للطب ، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوى ودرساً لتفسير القرآن الكريم وميعاداً (للمقريزى)

(٢) ولد سنة ٦١٣ (٣) مات سنة ٧٤٥ عن تسعين عاما